الأديب العربي بين التراث والمعاصرة

بقلم حنفي بن عيسى

موضوع البحث : الاديب العربي بين التراث والمعاصرة
البلـــد : الجزائـر
الكاتـــب : حنفي بن عيسى
عنوان البحث : الاديب العربي بين التراث والمعاصرة

كلمـا فكرت في وضعيةالاديب عندنا اتذكـر كلمة قالها ابوالطيب المتنبي ، منذ حوالي احد عشر قرنا ، في موقف الساخط على الدهر الذي ارغمه ـ وهو الانسان الابي الانوف ـ على مدح قوم لا قيمة لهم . فقد قال ذلك الشاعر المفوه :

الى كم ذا التخلف والتواني وكم هذا التمادي في التمادي ؟
وشغل النفس عن طلب المعالي ببيع الشعر في سـوق الكساد

ولعله ، من القدامى ، الشاعر الوحيد الذي تمردت نفسه على ما سماه صراحة بعملية البيع والشراء ، في سوق تعمها الكساد وليس فيها من يلقي اليك السمع ، او يلتفت الى ما تقول .. ومتى بيعـت الكلمة ، فقد ذهبت قدسيتها ، وصوحت روضة الشعر واقفرت دوحة الادب .

لقد اشار المتنبي الى لون من الادب لم يعد له ، في اغلـب الظـن ، وجود في البلاد العربية ، واعني به ادب الارتزاق : انـه قائم على التمسح باعتاب الطبقة المترفة ، والتغني بامجادها والتقرب مـن افرادها . اما اليوم فان الاديب ـ لحسن الحظ ـ لاتلجئه الضرورة الى الحالة المحزنة التي وصفها بعضهم ممن هجا المتنبي بالعبارات التالية :

اي فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بكرة وعشيا

عاش حينا يبيعفي الكوفـة الماء وحينا يبيع ماء المحيا

لقد اصبح الشغل الشاغل بالنسبة الى الاقطار النامية وشعوب العالم الثالث هو الازدهار والتقدم المادي ، الا ان هذه الاقطـار والشعوب ليس لهـا الا سهم قليل في الابتكار والاكتشاف . ولذلك فان هذه الرغبة الملحة في الازدهار والتقدم كثيرا ما تنقلب الى نزعـة شيئية ، واعني بهذه العبارة حرص الدول المتخلفة على كسب جميع « اشياء » الحضارة ومصنوعاتها ، كالسيارة وجهاز الاذاعة وما الـى ذلك .. انه لمن الغريب حقا ان يغيب عن اذهان البعض بان الرفاهية ليست كل شيء في الحياة وان لباس البذلة الانيقة وتوفير المرافـق الحديثة لا يكفي لكي يرقى بالانسان من وضعية المتخلف الى وضعية المتقدم حضاريا ، فنحن نستورد اكثر مما ننتج .. وبعبارة اخرى ، فنحن ننتمي الى حظيرة الشعوب المستوردة .. وبطبيعة الحـال ، نستورد السلع والافكار .. الا اننا في اغلب الاحيان نكتفي باستيراد السلع الجاهزة ، ولا تكلف انفسنا اية مشقة لسلوك دروب الفكـر الذي انتج تلك السلع .

وهذا الموقف من الحضارة المعاصرة له عواقب وخيمة في مجـال الادب . فهذه العقلية السائدة عندنا في التباهي بمصنوعات غيرنا ، والتنافس على كسبها ، جعلت منا شعبا يستهلك منتجات الحضارة . وقد اصبح سلوكنا خاضعا في كثير من مظاهره لهـذه العقليـة « الاستهلاكية » اذا صح التعبير ، واخوف ما اخاف ان يكون الادب نفسه قد تحول الى ادب استهلاكي باتم معنى الكلمة .

وانا لا اقول ان كل ما ينتج عندنا يعد من النوع الرخيص ومـن البضاعة المزجاة . فيما لا شك فيه انه يوجد اليوم في العالم العربي ادباء لا يقلون مقدرة واصالة عن غيرهم من مشاعر الكتاب في العالم .. وانما اقول انني اخشى ان تكون قد سرت الى ادبنا تيارات زائفـة شبيهة باللوثة التي حذر منها حافظ ابراهيم في مطلع هذا القرن ، حينما قال دفاعا عن اللغة القومية :

سرت لوثة الاعجام فيها كما سرى لعاب الافاعي في مسيل فرات

ان الشيء الاهم بالنسبة الى عقلية المستهلك هو اللحظة الراهنة. فكما ان الجائع مشغول البال باشباع بطنه ، فكذلك الكاتب يتحول الى شخص همه الوحيد حشو الادمغة ، ويعني بالسفاسف من القول ، والنوادر من الحكايات التي ليس القصد منها سوى التسليه وقضاء الوقت فيما لا يغني .

من الممكن اذن ان ينساق الاديب وراء الحلول السهلة ، وان تسول له نفسه الاقتداء بالتاجر والمهندس والطبيب والمحامي ، وغير هؤلاء من أصحاب المهن الحرة . ولقد يقول في نفسه : ان المهنة التي امارسها تستلزم من العناء وتتطلب من الذكاء ما يتطلبه ويستلزمه عمل الطبيب والمهندس . فالى متى اظل محروما من نعم الحياة ؟... والغريب انه يجد من المجتمع حوله تشجيعا على المضي في السبيل : فاغلب القراء لا يميلون الا لما يسمى بالمطالعات الخفيفة .. والناشر سوف يقنعـه بان الكتب المبسطة وروايات الجيب والقصص البوليسية ومغامرات الجواسيس ، اكثر رواجا من المؤلفات التي لا يزال بعض « المتزمتين »

يكتبونها فلا يجدون من يقرأها .. ورجال الصحافة والاذاعة والتلفزيون سوف يشعرونه بانه لا سبيل الى قبول انتاجه الا اذا توفرت فيه بعض الشروط ، وكتب على نمط خاص مقرر سلفا . اضف الى كل هذا ان الادب اصبح اليوم مصنعا (بتشديد النون) باتم معنى الكلمة . فقد تسربت اليه اساليب لم تكن تستخدم الا في مجال النشاط الاقتصادي كاصدار النشرات المبسطة والاقتباس والاختصار وما الى ذلك ... بل اصبحت تعقد اتفاقيات دولية لشراء حقوق الترجمة قبل صدور الكتاب في اللغة الاصيلة ، ولا يكاد يصدر ذلك الكتاب حتى تتخاطفه دور النشر بالمزايدة في الثمن .

والترجمة في حد ذاتها ، بصرف النظر عن نواحيها الايجابية ، لا تخلو من جانب استهلاكي ، لانها عملية استيراد للفكر الاجنبي بقصد الاستهلاك المحلي ، على غرار ما نستورد السيارات تماما .

ولعلكم توافقون بعد هذا اننا لم نحرز في هذا المجال تقدما كبيرا على عصر المتنبي . فادب الارتزاق الذي كان سائدا في عهده وادب الاستهلاك السائد اليوم في كثير من الاقطار انما هما صنوان متشابهان يتحكم فيهما قانون العرض والطلب ، ونشتم منهما رائحة المنفعة العاجلة ويتسم كل منهما بطابع الزيف والتفاهة ، وليس في اي منهما شيء من الصدق والاصالة .

ولكننا نتساءل بعد هذا كله : هل خلق الانسان لتكديس الارزاق وجمع الكتب من غير تمحيص بين جيدها وزائفها ، ام خلق لتخليد ذكره في هذه الحياة بالعمل الصالح النافع له ولمجتمعه ؟ وهنا آتي الى الحديث عن لون اخر من الادب ، هو الذي أراه اجدر بهذه الامة ، واليق بها في هذه الفترة الحرجة من تاريخها . وهذا الادب اسميه « ادب الظروف الطارئة » او « ادب الاحداث الجسام » او يسميه البعض بادب النضال اوادب الالتزام .. ومهما اختلفت التسميات ، فان الشيء المؤكد هو ان معركة المصير في حاجة الى ان يساندها الكتاب والشعراء والفلاسفة والمفكرون لان الاحداث التي يمر بها الوطن العربي يحتم على الاديب ان ينهض بمسؤولية عظمى في التوعية ، وفي معركة المصير بالذات .

ولكنني ، قبل الخوض في هذا اللون الثالث من الادب ، احب ان امهد له ببعض الخواطر ، فيما فهمته من عبارتي « معركة المصير ».

ان كلمة « المصير » تتضمن معنى الصيرورة في الزمان ، ولذلك فسوف استطرد قليلا لاتحدث عن مفهوم الزمان عند العرب .. فلامر ما ، لا يوجد في لغة الضاد سوى الماضي والمضارع ، بينما نجد ان الشعوب الاخرى تحدد فكرة الزمان بالماضي والحاضر والمستقبل .. ولكن المسألة لا تقف عند هذا الحد ، بل تختفي وراءها فلسفة عميقة ان اراد ان يبحث في مكنونات الالفاظ أن ما مضى من الافعال والاعمال انما يمثل بالنسبة الى تاريخ الحضارة ، التراث الثقافي ، لان تلك الافعال ان هي الا اعمال اجدادنا وتصرفاتهم وانماط سلوكهم في هذه الحياة .. وكما ان الفعل الماضي في عرف النحاة ، مبني ، اي ملازم لحالة واحدة ، فكذلك التراث الثقافي ، يمثل القيم الثابتة التي لا تتغير ، ومن واجب الانسان ان يحافظ عليها ، وان يقاوم كل محاولة لطمس معالمها ، لانها بمثابة الاساس في بناء صرح الحضارة .. وكما ان الفعل المضارع في عرف النحاة معرب ، اي متغير الاخر ، فكذلك الاعمال التي تقوم بها في الحاضر او في المستقبل لا تثبت على حالة واحدة ولانها متعلقة بالنية في مواصلة المشروع الى النهاية ، او العدول عنه كلية او التراجع في بعض اجزائه .

ان مفهوم المضارعة عند العرب شيء طريف حقا ، وذلك ان العرب بموجب حتمية التاريخ الزاحف ، وبمقتضى الفلك الدائر ، والزمان لا يقيدون انفسهم بالحاضر ، ما دام هذا الحاضر صائرا الى المستقبل المتجدد السائر .. فالواحد منا لا يكاد يعي نفسه في اللحظة الراهنة حتى تكون تلك اللحظة قد انقضت وحلت محلها اللحظة التالية ومعنى ذلك ان فلسفة العرب قائمة على الصيرورة اي على تحقيق المصير ، انطلاقا من الماضي الذي يحمل القيم الثابتة ، وانطلاقا كذلك من الحاضر الذي يتضمن المستقبل وينصب فيه .. على ان الحاضر انما يمثل في عمر الزمان نقطة تحفز الى المستقبل لان العربي انسان لا يرضى بحاضره ، بل يظل دائما محدقا بالافق ، باحثا عن معالم المستقبل ، وطالبا « للمعالي » على حد تعبير المتنبي .

ان الحاضر ينجسم في وضعية لا بد من تجاوزها الى وضعية احسن منها ، فاذا ما بلغت تلك الوضعية الجديدة ، فلا بد من السعي لبلوغ البدل ، فكذلك المعاصرة تفرض على الانسان العربي ان يكيف وضعه بحس مقتضيات الاحوال .. واذا نظرنا الى تاريخ الفكر العربي الاسلامي ، فاننا نجده حافلا بالعبارات الدالة على سعي المفكرين العرب لتغيير الواقع وتحسين المعيشة وتصحيح الوضع ... ومن تلك العبارات : « الاجتهاد والمناقشة والمجادلة والمناظرة والمحاورة » وكل عبارة من هذه العبارات تحمل في طيها روح الثورة الثقافية .

* * *

ان الجزائر التي خاضت بالامس غمار الثورة المسلحة المظفرة ، ترى ان تلك الثورة المباركة لا تكتمل الا اذا ساندتها ثورات ثلاث هي : الثورة الثقافية ، والثورة الزراعية والثورة الصناعية . وانا اعتقد ان كل واحدة من هذه الثورات الاربع هي معركة المصير بالذات ، لانها تعبر عن عدم الرضى بالحاضر ، وتدل على ديناميكية الفكر العربي وتكشف عن محاولة للحاق بركب الانسانية .

ويظن البعض ان مفهوم ، الثورة الثقافية ، مستورد ، وان عبارات « النهضة والتوعية والتمسك بالشخصية ، وتصحيح الوضع الثقافي ، والصراع العقائدي ، والتبعية الثقافية » ، ان هي الا كلمات منسوخة اذا صح التعبير ، اي انها وضعت على غرار مثيلاتها الاجنبية وربما نسي اكثر الناس ان الثورة الثقافية التي احدثها العرب والمسلمون منذ اربعة عشر قرنا ، ليس لها مثيل في تاريخ البشرية .

بطبيعة الحال ، لا يتسع المقام للدخول في تفاصيل هذا الموضوع، وانما اكتفي بالاشارة الى ان الآية الكريمة التي تقول : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، أقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » هي التي دفعت العرب في انطلاقة عبر الزمان والمكان ، لم يشهد لها التاريخ مثيلا ... ففي تلك الآية ، بصيغة الامر الذي وردت به ، حث صريح على القراءة ، وارشاد الى سبل المعرفة واشارة الى ان صرح الحضارة لا يمكن ان يبني الا اذا استعمل القلم (علم بالقلم) ، اي ان الحضارة لن تزدهر الا اذا انتقلت البشرية من مرحلة الرواية الشفهية الى مرحلة تدوين المعلومات ، وتسجيلها على القرطاس .

ولا ننسى في هذا المجال ان هذه الايات هي اول ما نزل من القرآن ، وذلك دليل قاطع على اهمية القراءة في الحياة .

ان المعاصرة ـ واعني بها الجهود التي يبذلها المرء ليكون ابن عصره ـ اصبحت تفرض علينا ان نتتبع باستمرار ما يجري في العالم من احداث ، وان ندرس القضايا المعروضة علينا ، وان نستزيد من العلم حتى لا نتخلف عن ركب الحضارة ، وان نرفه عن انفسنا بمطالعات جذابة ... وهكذا ترى الواحد من ابناء هذا العصر ، يطالع الجرائد والمجلات ، وينكب على دراسة التقارير والملفات ، ويقرأ القصص والروايات والمسرحيات ، ويقبل على كتب الثقافة والعلم ، اضف الى ذلك كله ما نتلقاه من رسائل ، وما نصادفه في الطريق من لافتات وما نراه ملصقا على الجدران من اعلانات ، فلا يجد مناصا من قراءة كل ذلك ... وهذا الامر يستوجب على من يريد ان يكون ابن عصره ، ان يتوخى طريقة في القراءة تمكنه من ان يطالع اكبر قدر ممكن ... وقد وجد بعض الباحثين ان السرعة في القراءة يمكن ان تتحسن بالتدرب

والمران ، وهذا موضوع اخر ، ويكفينا ان نقول بان المطالعة اصبحت من اوكد الواجبات بالنسبة الى معركة المصير ... ولا بد هنا من الاقرار بحقيقة مريرة ، وهي اننا لا نزال مقصرين في المطالعة ، واننا نعاني ازمة قراء .. او ليس من المؤسف ان نرى بعض انصاف المثقفين عندنا ، يقبلون على شراء مختلف انواع الاثاث ، وتجهيز بيوتهم بمختلف الادوات العصرية ، ومواعين الطبخ الحديثة ، والات التسلية ، الا انك تراهم يهملون ركنا اساسيا في البيت ، الا وهو المكتبة ؟.. ان اكثر الناس ، للاسف الشديد ، يتباهون بما لديهم من كتب .. ان تأسيس المكتبة في كل بيت ، يعود ببلادنا الى تقاليدها العريقة في حب العلم ، ويخلق جوا مناسبا للثورة الثقافية .

ان الادباء هم جنود هذه الثورة وطلائعها ، وروادها . وينبغي ان يقوموا بدور اساسي في التوعية . وكيف يكون للاديب جمهور يتابع انتاجه اذا لم يكن الشعب متعلما واعيا ؟ ولذلك فالثورة الثقافية قائمة اساسا اولا : على محو الامية بجميع اشكالها ، وثانيا على مقاومة الخرافات والاباطيل التي الصقتها جاهلية القرن العشرين بالدين وبالتراث القومي ، وثالثا على تصحيح الوضع الثقافي الراهن ،خاصة في الاقطار التي عرفت ليل الاستعمار ، وتعرضت للغزو الثقافي ونكبت في اعز شيء لدى الانسان ، الا وهو اللسان ، ورابعا على التفتح .. واحب ان اشير الى ان التفتح لا يمكن ان يكون سليم العواقب الا اذا حصل في اتجاهين : تفتح على الداخل وتفتح على الخارج ، وذلك ان كثيرا من الناس يتوهمون ان التفتح عملية شبيهة بفتح النافذة لكي تطل منها على الخارج ، وانا اقول بان عيوننا ينبغي ان تكون مفتحة قبل كل شيء على تراثنا القومي : فكل ما يلهج به الشعب من اغان وامثال وحكايات ، وقصص تروي البطولات ، كل ذلك ينبغي ان يعتبر من الروافد الزاخرة التي تصب في نهرنا الخالد الا وهو لغة الضاد . اما موقف الاستعلاء والترفع على التراث الشعبي ، فقد استنكره ابن خلدون بعبارات لا تزال حتى اليوم تحتفظ بجدتها وطرافتها ، فهو يقول دفاعا عن اللغات السائدة في عهده :

« ولا تلتفتين الى خرفشة النحاة ، اهل صناعة الاعراب ، القاصرة مداركهم عن التحقيق ، حيث يزعمون ان البلاغة لهذا العهد ذهبت ، وان اللسان العربي فسد ، اعتبارا بما وقع في اواخر الكم من فساد الاعراب الذي يتدارسون قوانينه ... وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم والقاها القصور في افئدتهم »

ان الاديب الحق لا ينبغي ان يكون مقطوعا عن الشعب . ولذلك يجب ان يتفرغ لمهنته ، والا فانه سوف يتناول الموضوعات الادبية من زاويته كموظف او كاستاذ او كطبيب الخ ... فالاديب الحق لا يتردد اذا اقتضى الامر ، في الانخراط للعمل في المصنع ، او في المزرعة ، او في اي مكان اخر يمارس فيه مهنة يدوية يمكنه من تلمس الواقع وتحسس آلام الشعب وآماله وافراحه واتراحه . بطبيعة الحال يمكن للاديب ان يتخذ موقفا اخر ، هو موقف المتفرج مما يقع حوله ، ولكن ما قيمة الاديب الذي يكتفي بوصف المشاهد اليومية او سرد الاحداث الخاصة او العامة ؟ وما قيمة الاديب الذي يكتفي بالوصف والسرد ويحاول ان يزيد من عنده شيئا من الشرح والتفسير والتحليل ؟ ان كل هذه المواقف تعتبر انهزامية ، وفيها تهرب من تحمل المسؤولية فلا بد اذن من المساهمة في عملية التحويل الاجتماعي وفي بناء صرح الامة .

اما التفتح على الخارج ، فهو مكمل للفتح على الداخل ولا يستقيم بدونه ، وذلك ان الانسياق بدون تحفظ وراء الاتجاهات الامية فيه خطر كبير على تماسك الشخصية القومية ، ان هذا النوع من التفتح له محاذير اهمها ان الخارج هو دائما مصدر لحملات التضليل .. فمن واجب الاديب ان يفضح بعض الاتجاهات السائدة عندنا ، وخاصة منها تلك التي تدعو الى التبعية الثقافية ، بدعوى اننا متخلفون في الميدان التقنولوجي .. وهذا لا يمنع من القول بان التفتح على الخارج شيء ضروري ، خاصة ان بعض الجوانب من الحضارة ، كالتربية والدين والتقنولوجيا ، انشأت لدى الناس من مختلف الجنسيات ، العديد من المفاهيم الثقافية والحضارية المشتركة وعلى سبيل المثال ، فان الانسان الافريقي اخذ يخرج من بوتقته الضيقة ويدرك ان هناك زنوجة تربط بين الافارقة السود ، وان هناك عروبة توحد شمل ابناء لغة الضاد ، وانه بعد هذا او ذاك ، توجد افريقانية ينتمي اليها الافارقة مهما اختلفت اوطانهم . ولا شك ان المهرجان الثقافي الافريقي الاول الذي عقد بمدينة الجزائر عام ١٩٦٩ قد اتى بالدليل القاطع على ان مختلف الفنون التعبيرية ، من ادب ورسم وغناء ورقص وتمثيل ، تكشف عن تراث مشترك من المفاهيم .

وزيادة على هذا ، فان التفتح يفرض على الكاتب ان يتجاوب مع جميع المعذبين في الارض ، فاينما كانت الحربة ذبيحة ، ينبغي ان يرتفع صوت الاديب منددا بالصهيونية والاستعمار والرأسمالية وجميع القوى التي لا تزال حتى اليوم تطبق اساليب التعذيب الوحشي ، وتستعبد الشعوب ، وتعكر صفو العلاقات بين الامم .

وبعد ، فان القيم التي ضمنت للغة قريش الانتشار في المكان والديمومة عبر العصور والازمان ، ينبغي ان تكون للادباء العرب خير رائد في مساعيهم للتفتح على العالم بما يعتمل فيه من افكار ، وما يتصارع فيه من مذاهب وعندئذ يمكن لهم ان يقولوا مع الشاعر الذي قال :

نبني كما كانت اوائلنا ... تبني ، ونفعل فوق ما فعلوا

الجزائر — **حنفي بن عيسى**

روايات وقصص

من منشورات دار الآداب

اولاد حارتنا	نجيب محفوظ	٧٥٠
الحي اللاتيني	د . سهيل ادريس	٤٠٠
الخندق الغميق	د . سهيل ادريس	٤٠٠
اصابعنا التي تحترق	د . سهيل ادريس	٤٠٠
ليل الغرباء	غادة السمان	٣٠٠
الناس والحب	محمد ابو المعاطي ابو النجا	٢٥٠
زورق من دم	يوسف شرور	٢٥٠
ثم تعود الموجه	ديزي الامير	٢٥٠
عن الرجال والبنادق	غسان كنفاني	٣٠٠
الخيل والنساء	د . عبدالسلام العجيلي	٣٠٠
فارس مدينة القنطرة	د . عبدالسلام العجيلي	٢٥٠
الزحام	يوسف الشاروني	٢٥٠
احزان حزيران	سليمان فياض	٢٥٠
الارض حبيبتي	عبدالكريم غلاب	٢٥٠
اعياد	عبدالله نيازي	٢٥٠
رحلة الخفاش	محمد رؤوف بشير	٢٥٠